

انطلاق حركة الرابع من أيار 1919

وصفت مقررات المؤتمر من عدد من الباحثين بأنها جاءت مخيبة لآمال الصينيين وأيقظتهم من سباتهم. ولاشك في أن المثقفين ولاسيما أولئك الذين درسوا في الخارج من أمثال هو شيه (في الولايات المتحدة) لو شيون وتشن تو هسيو (في اليابان) كانوا في طليعة من نبه الى المخاطر المحدقة بالبلاد واصبحت لهم أدوارا قيادية في حركة التظاهرات التي عرفت بحركة الرابع من أيار.

ولابد من القول أن مقررات مؤتمر فرساي، فيما يتعلق بالمطالب الصينية، لم تكن هي السبب الوحيد في قيام حركة الرابع من ايار، فقد كان تأثير أكتوبر الاشتراكية مشجعاً في هذا الاتجاه، فعلى النقيض من الدول الغربية التي أيدت المطالب اليابانية في شانغونغ، كانت روسيا قد دعت الى إقامة علاقات قائمة على قدم المساواة مع الصين. كما ان الصراع بين الزعماء العسكريين (أمراء الحرب) ترك آثاره على الأوضاع العامة، فمن بين ذلك انهم أسرفوا في إنفاق الأموال العامة لمصالحهم الخاصة وللمجهود الحربي أثناء الحرب الأهلية. وألحق ذلك أضراراً كبيراً بالأوضاع العامة بما فيها التعليم. كما ان عجز الطلبة الفقراء عن تسديد أجور الدراسة، وعدم تمكنهم من الحصول على فرص عمل في المصانع الحديثة ولاسيما المصانع التي يمتلكها الأجانب، جعل توجههم سلبياً تجاه الحكومة والتدخل الأجنبي.

وعلى نحو عام لم يكن المفكرون والمثقفون والطلبة والتجار الصينيون بمنأى عن متابعة التطورات في المؤتمر فقد شعروا بقلق شديد على مستقبل الصين. وكان رد الفعل الاول تجاه هزيمة الوفد المفاوضات الصيني في مؤتمر فرساي ضد تبادل مذكرات معاهدات 1918 التي أدت الى فشل الصين في استرداد حقوقها. وساد الاعتقاد بأن الصين وقعت ضحية ليس لإصدقائها الاجانب بل والى الخونة من حكومة أمراء الحرب الذين باعوا قضية البلاد.

فتزامنا مع انعقاد جلسات مؤتمر فرساي تصاعدت الشكوك لدى المثقفين الصينيين حول موقف المؤتمر من قضية شانتونغ. فكثف الطلاب والمثقفون والجمعيات والمنظمات من اجتماعاتهم لاسيما جمعية المد الجديد، جمعية الصوت المشترك، جمعية المواطن، جمعية العمل والدراسة، جمعية الدراسة التعاونية. وتم تحديد السابع من ايار موعدا لانطلاق التظاهرات احتجاجا على الوجود الياباني في شانتونغ، وهذا اليوم هو المصادف للذكرى الرابعة لتقديم الحكومة اليابانية الانذار للحكومة الصينية للقبول بالمطالب اليابانية الواحد والعشرين. الا ان ورود انباء عن حقيقة الموقف السلبي في مؤتمر فرساي من قضية شانتونغ دعا ممثلوا المنظمات والجمعيات الى عقد اجتماع في كلية بكين للقانون والعلوم السياسية أفضى الى تقديم موعد المظاهرات الى الرابع من أيار، والاتفاق على خمسة قرارات تحددت في : حيث جميع المنظمات المعنية في الداخل والخارج على رفض مقررات مؤتمر فرساي المتعلقة بقضية شانتونغ ،المساهمة في توعية الجماهير الصينية بحقيقة ماكان يجري في المؤتمر المذكور ،التهيؤ لتجمع كبير في بكين، أن يتم تأسيس منظمة مركزية موحدة(اتحاد) تشمل جميع المنظمات والتجمعات الطلابية وذلك لتسهيل إدارة وتنظيم العمل، والاتفاق على بدأ المظاهرات من بوابة السلام السماوي في الرابع من أيار الساعة الواحدة والنصف ظهرا، والتحرك عبر منطقة الاعمال في المدينة.

ولو أمعنا النظر في الجمعيات التي نظمت التظاهرات نجد أغلبها هي نفسها التي هاجمت الثقافة الصينية التقليدية(الكونفوشيوسية) وروجت للمثل والفلسفات الغربية واعادة تقييم تراث الصين من ثم اصبحت ساحة التظاهرات أخصب أرض لبث أفكارها، لاسيما مع وجود الاجواء المناسبة لنمو هذه الافكار وانتشارها.

تجسيدا لما تم الاتفاق عليه أحتشد في الرابع من أيار عام 1919 ثلاثة آلاف طالب من طلاب جامعة بكين عند بوابة السلام السماوي وخرجوا في تظاهرة احتجاج ضد هذه المقررات.

وحاولت الحكومة احتواء التظاهرات لكنها فشلت وحاول المتظاهرون تحريض الشعب ضد التدخل الأجنبي والموقف الضعيف للوفد الصيني وطالبوا بإقالة المسؤولين الموالين لليابان الذين تم وصفهم بالخونة ، كما بعث المتظاهرون برسائل الى الوفد حثوه فيها على رفض مقررات فرساي . **مستخدمين في ذلك المنشورات** التي كتبت باللغة الصينية العامة، والانكليزية، والفرنسية، حملت شعارات نددت بالمسؤولين الموالين لليابان.

من الناحية التنظيمية واصلت المنظمات الطلابية التخطيط الاستراتيجي ففي السادس من ايار تم تشكيل اتحاد الطلبة من المدارس المتوسطة ومؤسسات التعليم العالي وهي اول منظمة طلابية صينية متحدة وعرف بأسم اتحاد طلبة بكين. وبعد التاسع من ايار اتخذت التظاهرات منحى مقاطعة السلع اليابانية وتكديسها في الشوارع وإحراقها. الامر الذي اصبحت له أبعادا ليست سياسية فحسب بل واقتصادية أيضا وهوما أقرت به لاحقا الجهات الرسمية اليابانية.

وعلى حد وصف الوزير المفوض الامريكي رينش سارت التظاهرات الاولى على نحو سلمي لكنها سرعان ما تخللتها أعمال عنف وذلك بعد أن تعرض الطلبة لمنزل احد الأعضاء المفاوضات وحاولت الشرطة احتواء الموقف وجرت اشتباكات بين الطرفين اسفرت عن اعتقال اثنان وثلاثون **طالباً ، كما** فرضت الاحكام العرفية في جميع انحاء المنطقة وحدثت اشتباكات بين الشرطة والمتظاهرين أسفرت عن حدوث أصابات لدى الطرفين.

وحظي نداء الطلبة بأستجابة شعبية فبعد اسابيع قليلة شهدت المقاطعات الصينية تظاهرات مماثلة لتلك التي نظمها الطلبة في بكين وروجت لمقاطعة البضائع اليابانية. ولاسيما في تيانجين . وقد وصف السيد رينش ذلك بدقة حينما قال "إن تعبئة الرأي العام الفعال، وتحديد اهدافه، كانت تطورا جديدا في الحياة السياسية الصينية" .

والواقع ان التظاهرات التي شهدتها المقاطعات الصينية كانت على درجة عالية من التخطيط والتنظيم، فقد كان التجمع يتم بالقرب من احد مكاتب الحكومة المركزية او في ساحة عامة الا انه بعد انطلاق التظاهرة يتم التوجه والانتقال عبر مراكز الاعمال الهامة في المدينة. وهذا من شأنه تحفيز طبقات المجتمع الاخرى ولاسيما التجار والصناعيين والعمال على المشاركة والدعم لهذه المظاهرات ومطالبها الوطنية وهو ما حدث بالفعل.

وتأييدا لما سبق قدمت الطبقة البرجوازية الوطنية(التجار وصغار الصناعيين)دعمها واسنادها لهذه التظاهرات، ولاسيما انها كانت هي أيضا ضحية الامتيازات الأجنبية، وبحاجة إلى إعادة وحدة البلاد وإصلاح النظامين الإداري والقضائي على النمط الغربي، ووضع حد للامتيازات الأجنبية وفي ضوء ذلك أرسلت ست واربعون غرفة تجارة في شنغهاي بقرقيات الى المؤتمر طالبت فيها باستعادة سيطرة الصين على **خدمة الرسوم الكمركية**. وأشاروا الى حق الصين في فرض رسوم عالية على الواردات، ولتنظيم الجهود تم تشكيل(تجمع المساواة التبادلية في شؤون الرسوم الكمركية)في شنغهاي. لذا يمكن القول أن حركة الرابع من أيار عبرت في بعض أوجهها عن طموح الطبقة البرجوازية في التطور الاقتصادي. والنقطة الابرز هنا هي التحالف بين العمال والتجار إذ اعلنت غرفة تجارة بكين تأييدها لمطالب الطلبة وصدرت دعوات لمقاطعة السلع اليابانية،وارسل التجار رسائل للحكومة عبروا فيها عن دعمهم للطلبة ودعوها للإفراج عن المعتقلين. كما أيد مستشاروا عدد من الجامعات(رؤساء الجامعات)مطالب الطلبة ونتيجة لذلك علقت وظائفهم(كثير منها أعيد بعد انتهاء الاضرابات).وفي تموز نظمت الحكومة حملة اعتقالات جماعية طالت آلاف الطلبة ولما لم تتسع السجون تم اعتقال المتظاهرين في الدوائر الرسمية. ونتيجة لذلك أصدرت دائرة شنغهاي للتجارة منشورات ايدت فيها الطلبة وفي الخامس من حزيران اعلن العمال والصناعيين في شنغهاي بالتعاون مع اتحاد طلبة شنغهاي اضرابا استمر ما بين ثلاثة الى اربعة ايام.وتمكن هذاالاضراب من اغلاق المدينة بأكملها والتي

بلغ تعداد سكانها حينها اكثر من مليون ونصف نسمة. ان طبيعة الاضرابات المتشددة والانتشار السريع في جميع انحاء المحافظات الاخرى كان لها تأثيرا كبيرا على الاقتصاد الصيني. لذا حاولت الحكومة وقفها بالترغيب والترهيب ولكن كان نصيبها الفشل.

وفي الثامن والعشرين من حزيران، في الوقت الذي استعد فيه المؤتمر للتوقيع على معاهدة الصلح مع المانيا، احتشد عدد كبير من الطلاب والعمال حول فندق لوتيتيا في باريس الذي كان بمثابة مقر للوفد الصيني لمؤتمر السلام. وحاول المحتشدون منع الوفد من مغادرة الفندق والتوجه الى قصر فرساي لتوقيع المعاهدة. عندئذ أعلنت الحكومة الصينية رفضها توقيع معاهدات فرساي. وهكذا فإنه على الرغم من أن حركة الرابع من أيار لم تحقق الكثير من اهدافها الا انها حققت جانبا مهما منها. ومع ان اليابان بقيت تحتل كياوتشو الا ان عدم التوقيع على المعاهدة أفقدها شرعية وجودها في شانغونغ. وبعودة الوفد الى الصين اكتسبت التظاهرات زخما جديدا ولم تنته حتى نيسان 1920 وهكذا تكون الحركة قد استمرت عاما كاملا.

لقد كانت مجلة الشباب الجديد المجلة الرئيسية في حركة الرابع من أيار، وقد اصبح معظم اعضائها من المؤسسين للحزب الشيوعي الصيني، لاسيما تشن تو هسيو محرر المجلة ولي تا تشاو. ولم تقتصر الاسهامات والكتابات فيها على الذين اعتنقوا لاحقا الماركسية. ولكن ايضا من الليبراليين من أمثال هوشي. وكافة الكتاب الذين رغبوا بأستبدال مبادئ الكونفوشيوسية والممارسات السياسية والاجتماعية بأخرى لجعل الصين اكثر تماشيا مع العالم. وكان جوهر الفرق بين الليبراليين والماركسيين في مسألة السلطة السياسية. حيث دقت ثورة اكتوبر اسفينا بينهما فقد رفض هوشي والليبراليين قيمة واهمية الماركسية للصين. غير ان تشن تو هسيو ولي تا تشاو كانا متعاطفين معها آنذاك ورغبوا في معرفة ما هو اكثر عنها. وكان الفرق بينهما فيما اذا كان ينبغي ان تحل مشاكل الصين بالقيام بثورة سياسية او اجراء التغيير على نحو بطيء تطوري. كما كان للاهتمام المتزايد في مناقشة شؤون العمل في طروحات الثورة أثره في تعزيز

التعاطف مع الماركسية. وخلال حركة الرابع من ايار كانت الطبقة العاملة في المدن اكثر وعيا سياسيا، على الرغم من ان الطبقة العاملة كانت لاتزال صغيرة الا ان أعدادها في تزايد مستمر وعلى نحو كبير بسبب ظروف الحرب العالمية الاولى التي أسهمت في توسيع الصناعات في الصين، فضلا عن اختفاء العديد من الواردات الاجنبية نتيجة الحرب.

ولابد من القول أن قادة الفكر الجديد من الاساتذة والمعلمين والكتاب كانوا مصدر إلهام لحركة الرابع من أيار، ولهم دور كبير في تشجيع الطلاب على الاهتمام بشؤون الصين ومتابعة ما يجري في العالم. كما أبرزت الحملة دور الطبقات الجديدة في المجتمع لاسيما الطبقة المثقفة الحديثة والطبقة العاملة وطبقة التجار وهي الطبقات التي ولدت نتيجة الانفتاح الصيني على الغرب، فكان تفاعلها مع الاحداث كبيرا ونم عن وعي سياسي متقدم.